

نصرة فلسطين في رؤية الأمين

التأصيل الفقهي لفكر السيد حسن نصر الله
حول فلسطين وطوفان الأقصى

الشيخ شادي علي

الفهرس

2 مقدمة
5 الأصل الأول: محورية المشروع الحضاري الإسلامي
5 الركن الأول: مبدأ الاستخلاف وعمارة الأرض
6 الركن الثاني: مبدأ الشهادة على الناس والخيرية
7 الركن الثالث: تحقيق الأهداف العليا للشريعة
7 الركن الرابع: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
8 الركن الخامس: الجهاد
9 التفصيل الأول: شرط التناسب والتدرج في الدفع
10 التفصيل الثاني: وجوب مبادرة العدو
13 الركن السادس: السنن الإلهية في صراع الحق مع الباطل
14 الأصل الثاني: مبادئ العلاقات الخارجية (حفظ الكرامة والمعاملة بالمثل)
14 الركن الأول: كرامة الإنسان ووحدة الأصل البشري
14 الركن الثاني: مبدأ المعاملة بالمثل
16 أولاً: التأسيس القرآني المباشر
16 ثانياً: التأسيس في السنة النبوية
17 ثالثاً: الآثار والمقاصد الشرعية

الأصل الخامس: قاعدة "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" 21

مقدمة

دوافع (السيد حسن نصر الله) لنصرة القضية الفلسطينية تنبع من تضافر ثلاثة أبعاد رئيسية: بُعد أخلاقي-ديني يعتبر الدفاع عن فلسطين واجباً شرعياً، وبُعد إنساني يرفض الظلم ويدافع عن كرامة الإنسان، وبُعد فطري يرى في مقاومة الاحتلال استجابة طبيعية للضمير البشري السليم. هذه المنظومة المتكاملة هي التي تشكل الإطار الفكري والسياسي لمواقفه من الصراع العربي-الإسرائيلي.

طبقاً لتعريف مفهوم "الفطرة" في الفلسفة الإسلامية، والتي تعني الطبيعة الإنسانية السليمة التي تميل إلى الخير وتنبذ الشر والظلم. يرى (السيد نصر الله)، أن دعم فلسطين ونصرة شعبها هو استجابة طبيعية وفطرية لكل إنسان سوي يرفض رؤية شعب يُقتل من أرضه ويُحرم من حقوقه الأساسية، وتتجلى هذه الفكرة في تأكيده على أن مقاومة الاحتلال هي "حق طبيعي ومشروع لا يحتاج إلى تبرير قانوني أو سياسي معقد، بل هو نابع من غريزة الدفاع عن النفس والكرامة والوجود."، يحلل بعض الباحثين في الحركات الاجتماعية هذا النوع من الخطاب على أنه محاولة لتأصيل موقف أخلاقي في اللاوعي الجمعي العالمي، بحيث يصبح دعم فلسطين ليس مجرد خيار سياسي، بل هو ضرورة تفرضها الطبيعة البشرية السوية¹، هذا الخطاب الفطري يهدف إلى جعل القضية جزءاً من الهوية الذاتية لكل فرد، بحيث يشعر بالمسؤولية الشخصية تجاهها، انطلاقاً من إنسانيته المجردة، يقول (السيد نصر الله): "هذه هي أيها الإخوة والأخوات جبهتنا الشريفة الإنسانية الأخلاقية التي نتضامن فيها وندعم فيها ونساند فيها ونُدافع فيها عن المظلومين وعن المعذبين وعن المعتدى عليهم في غزة وفي فلسطين المحتلة ... إن جوهر كربلاء وعاشوراء أن ننتصر للمظلوم ولصاحب الحق المعتدى على حقه، وهنا نحن ننتصر لفلسطين، لقطاع غزة المظلوم، للضفة الغربية ولشعبنا المعتدى عليه في لبنان"².

ثم تتجاوز دوافع (السيد نصر الله) الإطار الديني لتشمل بُعداً إنسانياً عالمياً، يركز على مفهوم "الظلم" و"العدالة". حيث نجد في العديد من خطابه استعراض تفصيلي (السيد نصر الله) للمعاناة اليومية للشعب الفلسطيني من قتل، وتهجير، وحصار، واعتقال، واصفاً هذه الممارسات بأنها جرائم ضد الإنسانية تتنافى مع أبسط المبادئ الأخلاقية التي يقرها الضمير البشري، ويستند هذا الخطاب إلى مبدأ عالمي يتمثل في رفض الظلم ورغبة فطرية الدفاع عن "المستضعفين" في الأرض؛ يشير الأكاديمي (أوغسطس ريتشارد نورتون - Augustus Richard Norton) إلى أن خطاب حزب الله غالباً ما يؤطر الصراع ليس فقط كقضية

¹ Alagha, Joseph: Hizbullah's Identity Construction. Amsterdam University Press, 2011, pp. 215-220.

² كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله 2024-1-14.

إسلامية، بل كقضية إنسانية تهتم كل أحرار العالم³، وذلك من خلال التركيز على الجانب الإنساني، الذي من خلاله يسعى (السيد نصر الله) إلى حشد دعم يتجاوز الحدود الدينية والطائفية، ويخاطب الضمير العالمي، مقدّمًا المقاومة على أنها ردُّ فعلٍ مشروعٍ على عدوانٍ غير إنسانيٍّ، يقول (السيد نصر الله): "ما جرى ويجري على الناس في قطاع غزة... يجب أن يهز ضمير كل إنسان في هذا العالم، يجب أن يزلزل وجدان كل الناس في هذا العالم، ويجب أن يستشعروا المسؤولية ماذا يجب عليهم أن يفعلوا اتجاه هذا العدوان وهذه الكارثة الإنسانية، إنسانياً وأخلاقياً ماذا يجب أن يقولوا وماذا يجب أن يفعلوا وأن يعملوا، لكن الأهم أيها الأخوة والأخوات هي المسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى"⁴.

وصولاً إلى الدائرة الأكثر خصوصية، وهي المرجعية المركزية في دعم (السيد نصر الله) للقضية الفلسطينية من منطلق ديني-إسلامي وسياسي-إسلامي⁵؛ فالمقدسات الإسلامية، والدفاع عنها وعن أرض فلسطين يُعتبر واجباً بالمفهوم الشرعي، يجعل هذا الدعم من يندرج ضمن مفهوم "الجهاد" بمعناه الواسع، الذي لا يقتصر على القتال، بل يشمل نصرته المظلومين ومقاومة المحتل ولو بالموقف والكلمة، وهو ما يمثل التزاماً أخلاقياً ألزم به الشهيد نفسه تجاه "الأمة الإسلامية" جمعاء، ما يجعل العلاقة مع فلسطين ليست مجرد تضامن سياسي عابر، بل هي جزء من الهوية الدينية والعقائدية التي لا يمكن التنازل عنها. ويُقدّم (السيد نصر الله) الصراع على أنه مواجهة بين "الحق" المتمثل في الشعب الفلسطيني صاحب الأرض، و"الباطل" المتمثل في الاحتلال الصهيوني، وهو ما يضيف على الموقف بُعداً أخلاقياً مطلقاً يتجاوز الحسابات السياسية الآنية، يقول في مواقف مختلفة من خطباته: "... نُجدد نفس الخطاب، نفس المضمون النفسي والروحي والفكري والعقائدي: ألا إنّ الدعي ابن الدعي، هذا الإسرائيلي، هذا الموجود غير الشرعي، ولذلك هو دعي ابن دعي، لأن أميركا أيضاً موجود غير شرعي"⁶، وفي خطاب آخر: "... للحسين الذي يحضر اليوم في كلّ جبهات صراع الحق مع الباطل، قيمه، موقفه، دين جدّه، أمة جدّه، في غزة، في الضفة، في فلسطين، في اليمن، في العراق، في لبنان، في جبهة جنوب لبنان، في كلّ الجبهات وفي كلّ الساحات وفي كلّ الميادين، نقول له ما تركتك يا حسين"⁷.

وبصفته عالم دين، وقائداً لفصيل جهادي إسلامي تأسست أفكار (السيد حسن نصر الله) حول القضية الفلسطينية وعملية "طوفان الأقصى" بشكلٍ أساسيٍّ على مجموعة من الأصول الشرعية والعقائدية التي تشكل رؤية فلسفية شاملة مبنية على أساس من الاجتهاد الفقهي في مسائل الدين الإسلامي، ستحاول هذه الدراسة استعراض هذه المباني استناداً إلى المدرسة

³ Norton, Augustus Richard: Hezbollah: A Short History. Princeton University Press, 2007, pp. 98-102.

⁴ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله بمناسبة يوم الجريح المقاوم.

⁵ Saad-Ghorayeb, Amal. Hezbollah: Politics and Religion. Pluto Press, 2002, pp. 130-135.

⁶ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله حول التطورات الأخيرة 25-8-2024.

⁷ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في ختام المسيرة العاشورانية الكبرى 17-7-2024.

الدينية التي انتمى لها السيد الشهيد (حوزة قم)، محاولين الربط بين هذه الأصول وما يقابلها من أفكار أساسية في خطبه في فترة حرب "طوفان الأقصى" وحتى شهادته المباركة.

وقد أثرنا أنه كلمنا أصلنا فقهياً لموقفٍ أو حركةٍ أو فكرةٍ طرحها (السيد حسن نصر الله)، فإننا نوثقها في الهامش على مباني مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) وكذلك على مباني ومصادر المدارس الفقهية للمذاهب الأخرى، حتى يمكن قراءة مواقفه وفكره في الإطار الإسلامي الجامع، ثم دمجنا في ذلك الاقتباسات والأفكار التي تتفرع عن هذه الأصول، وهي وإن كانت تتسم بطابع العمومية واستخدام المصطلحات الإعلامية الدارجة مراعاةً للجمهور المخاطب، إلا أننا سنحاول الربط بين جوهر هذه الأفكار مع الأسس والأصول الفكرية التي تم سردها بشكل تفصيلي.

أملين أن تكشف هذه الدراسة عن بعض الجوانب الغائبة إعلامياً في شخصية الشهيد.

الأصل الأول: محورية المشروع الحضاري الإسلامي

مفهوم "المشروع الحضاري الإسلامي" هي رؤية كلية شاملة تستمد أسسها من مجموعة من المبادئ القرآنية الكبرى، والقواعد الفقهية، والأهداف العليا للشريعة، التي تشكل مجموعها إطاراً متكاملًا لبناء حضارة إلهية وإنسانية، ويمكن بيان هذا الأساس الفقهي عبر أربعة أركان أساسية:

الركن الأول: مبدأ الاستخلاف وعمارّة الأرض

يحدد هذا المبدأ الوظيفة الكونية للإنسان، ليمنح نشاطه الحضاري بعداً إيمانياً ورسالياً انطلاقاً من فهم دور الإنسان كـ "خليفة" لله في الأرض، وهي خلافة تقتضي تحمّل مسؤولية البناء والإصلاح؛ قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: 30]. وتؤكد مدرسة أهل البيت والمذاهب الإسلامية الأخرى أن المصداق الأكمل لهذه الخلافة هم الأنبياء والأئمة المعصومون ثم نوابهم العامين من الفقهاء، وأن الأمة مكلفة بالسير على هُدهم لتحقيق هذه الخلافة العامة لأداء التكليف الأساس للإنسان وهو عمارّة الأرض؛ يقول -تعالى-: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود: 61]، أي السعي والعمل للتنمية والعلم والصناعة كواجب كفائي لتحقيق مراد الله⁸، فيُضفي هذا المبدأ الشرعية الدينية على كل جهد بشري يهدف إلى عمارّة التقدم والازدهار، ويجعل من بناء حضارة عادلة ومزدهرة جزءاً لا يتجزأ من الإيمان والتكليف الإلهي.

على هذه الأسس يترجم الصراع في عقل حزب الله إلى صراع المستضعفين ضد الاستكبار العالمي؛ فالعالم تبعاً لذلك منقسم إلى قطبين: قوى الاستكبار الظالمة والمستغلة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية (التي وصفها بـ "الشیطان الأكبر"، والشعوب المستضعفة المقهورة، وتمثل القضية الفلسطينية هي أبرز ساحات هذا الصراع المصيري، وعليه لا يُنظر إلى "إسرائيل" كدولة مستقلة، بل كقاعدة متقدمة للاستكبار في قلب العالم الإسلامي لضمان هيمنته ونهب ثرواته، لذلك، فإن نصرّة فلسطين هي جزء لا يتجزأ من النضال العالمي لتحرير جميع المستضعفين. وقد عرّف الإمام (الخميني) يوم (القدس) بأنه "يوم مواجهة المستضعفين مع المستكبرين"، ويعتبر (السيد نصر الله) تشرذم العالم الإسلامي وانقسامه السبب الجوهرى في ضعفه وتمكين أعدائه منه، وتمثل القضية الفلسطينية المركزية القادرة على تجاوز الخلافات المذهبية والقومية وتوحيد صفوف الأمة.

يرى (السيد حسن نصر الله) أن القيادة الحقيقية لا تُختزل في فرد، بل في بناء منظومة فكرية ومؤسسية قادرة على الاستمرار، ويؤكد على ضرورة تجديد الخطاب الأيديولوجي واستراتيجيات المقاومة لمواجهة التحديات الجديدة، بما في ذلك تعزيز الجبهة الداخلية بالوحدة

⁸ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج10 ص311. & القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، ج9 ص61.

الوطنية وتوسيع التحالفات، ويعتبر أن المقاومة فعل ثقافي وأيديولوجي يهدف إلى تحرير الوعي، ويطرح (السيد حسن نصر الله) رؤية تتجاوز العمل العسكري المباشر إلى بناء "مجتمع مقاوم"، هذا المجتمع، بكل أبعاده الثقافية والسياسية والإعلامية، يُعتبر جزءاً لا يتجزأ من مشروع المقاومة الأوسع، وفي هذا الإطار، فإن دعم صمود الشعب الفلسطيني في غزة، وتعبئة الرأي العام لقضيته، يُعتبر جزءاً من بناء هذا "المجتمع المقاوم" الذي يمتد عبر الحدود، يقول (السيد نصر الله): "... يجب أن لا يغيب هذا عن بال الشعوب، يجب أن لا نخطئ في تشخيص العدو الحقيقي لشعبنا ولأمتنا، يجب على كل بلد عندما يريد أن يناقش الأمن القومي، إذا لم يصل إلى نتيجة أن أميركا خطر وتهديد لأمنه القومي، فهو لا يعرف مقتضيات أمنه القومي إما جاهل أو يختبئ لخوفه وجبنه أميركا هي التهديد الأول، وإسرائيل هي مجرد أداة أميركية ..."⁹، ويقول في موضع آخر: "نحن في لبنان منذ 8 تشرين الأول 2023 ميلادية دخلنا مرحلة مختلفة ونخوض معركة مختلفة، لأننا أعلننا بوضوح أننا فتحنا جبهة الإسناد اللبنانية في معركة طوفان الأقصى الفلسطينية التي هي معركة الأمة كلها، نصرة للشعب الفلسطيني المظلوم والمحاصر والمقاوم ... نحن ننتصر لفلسطين، لقطاع غزة المظلوم، للضفة الغربية ولشعبنا المعتدى عليه في لبنان منذ 76 عاماً، نحن ننتصر لكل شعوب منطقتنا التي اعتدى عليها هذا الكيان الغاصب بالاحتلال"¹⁰.

الركن الثاني: مبدأ الشهادة على الناس والخيرية

يحدد هذا المبدأ وظيفة "الأمة الإسلامية" تجاه العالم، ويعطي للمشروع الحضاري الإسلامي بُعداً عالمياً، حيث كُلفت هذه الأمة بأن تكون نموذجاً للحق والعدل، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ...﴾ [البقرة: 143]، وذلك من خلال تقديم نموذج حضاري قائم على العدل. كذلك، فإن وصف "خير أمة" في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، يوجب على الأمة الإسلامية السعي نحو التميز الحضاري في كافة الميادين، لكي تكون قادرة على أداء دورها كشاهدٍ حقٍّ، وتقديم نموذجٍ عمليٍّ جاذبٍ للبشرية.

تُقدم تجربة حزب الله كنموذج ناجح لفعالية المقاومة، ثم وظّف هذا النجاح ليقدم المقاومة ليس فقط كحق مشروع، بل كضرورة حتمية وواجب مقدس وكنموذج للشهادة على الناس في السياق الحضاري الإسلامي ونموذج للخيرية ومواجهة الغطرسة والعدوان "الإسرائيلي"، يقول (السيد نصر الله): "... هذا النموذج اللبناني الراقى تقدّمه لشعبنا في فلسطين. لتحرير أرضكم لستم بحاجة إلى دبابات ولا إلى توازن استراتيجي، ولا إلى صواريخ، ولا إلى طائرات، ولا إلى مدافع، بل على طريقة الاستشهاديين الماضين الذين هزوا الكيان الصهيوني الغاصب وأربعوه، يمكنكم أن تستعيدوا أرضكم. أنتم أيها الفلسطينيون المظلومون والعزل

⁹ نصر الله، السيد حسن: يحبهم ويحبونه، ص18.

¹⁰ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في ختام المسيرة العاشورائية الكبرى 2024-7-17.

والمحاصرون، يمكنكم أن تفرضوا على الغزاة الصهاينة أن يعودوا من حيث أتوا.. فليذهب الفالاشا إلى أثيوبيا، فليعد اليهود الروس إلى روسيا.. الخيار عندكم والنموذج ماثل أمام أعينكم: المقاومة الصادقة والجادة يمكنها أن تصنع لكم فجر الحرية. يا إخواننا وأحباءنا في فلسطين! أقول لكم يا شعبنا في فلسطين: إن إسرائيل هذه التي تملك أسلحة نووية وأقوى سلاح جو في المنطقة، والله هي أوهن من بيت العنكبوت! لكن إذا كنتم تريدون الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كما كان في السابق فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تنتظرون المجتمع الدولي فلن تصلوا إلى نتيجة، إذا كنتم تراهنون على المعادلات فلن تصلوا إلى نتيجة، يا شعب فلسطين: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا شعب فلسطين: إن ينصركم الله فلا غالب لكم...¹¹، وهو ما عبّر عنه (السيد الخامنئي): "لنفترض بأن الحكومة الفلانية العميلة الفاسدة الفارغة الخاوية استطاعت في القرار الفلاني عبر الأموال والدولارات النفطية أن تدين حزب الله، فلتذهب للجحيم. وما أهمية ذلك؟ إن حزب الله يسطع هناك كالشمس، وهو مبعث افتخار للعالم الإسلامي."¹².

الركن الثالث: تحقيق الأهداف العليا للشريعة

ثمثل مقاصد الشريعة المرجعية التي توجه مسار المشروع الحضاري الإسلامي وتحدد أولوياته، بشكل عام توجه الشريعة إلى ما يحقق مصالح العباد ويدرك المفسد عنهم بواسطة مجموعة من الأهداف الكبرى، أهمها: صيانة العقيدة، وحفظ الأنفس، وتنمية العقول، وحفظ نظام الأسرة، وإقامة العدل الاقتصادي،... وغيرها. وقد تحدث فقهاء كبار، مثل الشهيد (محمد باقر الصدر)، هذه الرؤية في كتاباته بشيء من التفصيل، حيث ربط -على سبيل المثال- بين النظام الاقتصادي الإسلامي وتحقيق أهداف العدالة والكفاية والتوازن¹³، يقول (السيد نصر الله): "أقول للإسرائيليين إن لبنان وشعبه لن يقبلوا بعد الآن نهب ثرواته وأن تفرض عليه غير إرادته، ونحن مستعدون لكل الاحتمالات... وشعب لبنان لن يتسامح بحقه بعد الآن...".

الركن الرابع: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذا المبدأ هو ضمان حيوية واستمرارية المشروع الحضاري الإسلامي وقدرته على الإصلاح الداخلي ومقاومة الفساد، حيث يُعدُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من "فروع الدين" الأساسية في مذهب أهل البيت والمذاهب الإسلامية الأخرى، وهو واجب فردي ومسؤولية جماعية تقع على عاتق الدولة والمجتمع والأفراد كواجب كفائي؛ يقول -تعالى-: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، حيث يقتضي هذا الواجب تأسيس آليات مجتمعية ومؤسسية للرقابة

11 كلمة السيد نصر الله في عيد المقاومة والتحرير 26-5-2000.

12 كلمة الإمام الخامنئي لدى لقائه بالهيئات الطلابية 20-4-2016.

13 الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، ص329 (في بيان أهداف النظام الاقتصادي الإسلامي). & الشاطبي، إبراهيم بن موسى: الموافقات في أصول الشريعة، ج2 ص8 (في بيان مقاصد الشريعة).

والمحاسبة، والسعي إلى ضمان الحريات المسؤولة التي تسمح بنقد الانحرافات وتقويمها؛ فالمجتمع الحي هو الذي يمتلك القدرة على ممارسة النقد الذاتي والإصلاح المستمر على كافة المستويات، من الفرد إلى أعلى سلطة في الدولة، كما هو مفصّل في كتب الفقه¹⁴، يقول (السيد نصر الله): "إن واجب كل حر وشريف من هذا العالم أن يُبين هذه الحقائق التي تحدثنا عنها، في معركة الرأي العام التي يخوضونها بالأكاذيب والتزوير والتحريف، والرأي العام العالمي بدأ ينقلب على هؤلاء الطغاة، على قتلة الأطفال الحقيقيين"¹⁵.

الركن الخامس: الجهاد

الذي يشمل تفرعات فقهية منها الحد الأدنى وهو وجوب جهاد الدفع من الأسس الفقهية المتسالم عليها خاصة في شقه المتعلق بالدفاع عن النفس والمال والعرض، والذي يُعرف فقهياً بـ"دفع الصائل"، هو واجب شرعي ثابت، وحق طبيعي كفه الشرع والعقل، ويستند إلى أساس من القرآن الكريم، والروايات الشريفة عن النبي الأكرم وأئمة أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام)، وإجماع الفقهاء، وكليات ومقاصد الشريعة، وهو يختلف عن الجهاد الابتدائي في كونه لا يتطلب إذن ولي الأمر أو الإمام المعصوم أو نائبه، بل هو واجب فوري على كل من تعرّض لعدوان.

وقد أقرت النصوص القرآنية مبدأ رد العدوان، ورفضت الاستسلام للظلم، وأسقطت المسؤولية الجنائية عن من يدافع عن نفسه؛ يقول -تعالى-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: 190]، حيث تأذن الآية بقتال من بدأ بالعدوان، وتضع قاعدة أن الممنوع هو البدء بالاعتداء، أما الدفاع عن النفس فهو مشروع، وفي موضع آخر تضع المسؤولية عن المدافع إذ يقول -تعالى-: ﴿وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41]، حيث ترفع هذه الآية أي تبعة قانونية أو لوم عن من يدافع عن نفسه في مواجهة الظلم، مما يؤسس للحق الكامل في الدفاع الشرعي، بل يصل الحكم الشرعي إلى حرمة الاستسلام للتهلكة؛ يقول -تعالى-: ﴿وَلَا تُلْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، إذ استدل الفقهاء بأن ترك الدفاع عن النفس أمام من يريد القتل ظلماً هو مصداق من مصاديق إلقاء النفس في التهلكة المحرم شرعاً.

كما ورد في السنة المرورية عن النبي الأكرم وأهل بيته المطهرين بأحاديث صريحة تُعتبر هي العمدة في هذا الباب، أحكام مثل: هدر دم المعتدي، حيث سئل الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عن الرجل يصول على الرجل في بيته (يهجم عليه)، قال: "دمه هدر، ولا شيء عليه"¹⁶. وفي رواية أخرى عن اللص يدخل على المرأة يريد نفسها، قال: "اقتليه، فما كان

¹⁴ الخميني، روح الله: تحرير الوسيلة، ج 1 ص 462 (في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). & الماوردي، علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 240 (في باب ولاية الحسبة).

¹⁵ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله خلال الاحتفال التكريمي بالشهداء الذين ارتقوا على طريق القدس.

¹⁶ الحر العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج 15 ص 137 (أبواب مقدمات الحدود وأحكامها العامة). & صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهتر الدم في حقه، حديث رقم 140. (بلفظ قريب)

عليك من شيء"17. هذه الروايات تؤسس بشكل قاطع لحق الدفاع، وتُهدر دم المعتدي، وترفع أي ضمان (دية أو قصاص) عن المدافع، بل تصل المرويات إلى تثبيت درجة الشهادة لمن يقتل في سبيل الدفاع: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "من قُتل دون مظلّمته فهو شهيد"18.

وأجمع فقهاء مدرسة أهل البيت والمذاهب الإسلامية على وجوب الدفاع عن النفس والعرض، وجوازه عن المال؛ يقول الإمام (الخميني): "لو هجم عليه لص أو غيره، على نفسه أو عرضه أو ماله، وجب عليه الدفع بأي وسيلة ممكنة"19، كما كرّس الفقهاء قاعدة فقهية خاصة تحت عنوان "لا ضرر ولا ضرار": وهي من أشهر القواعد المستفادة من السنة النبوية، وتفيد بحرمة الإضرار بالنفس أو بالغير. ودفع الصائل هو تطبيق مباشر لدفع الضرر عن النفس والعرض والمال²⁰، كما تحكم سيرة العقلاء بحسن الدفاع عن النفس وقبح الاستسلام للظلم والعدوان، وهو ما أمضاه الشارع وأكده.

التفصيل الأول: شرط التناسب والتدرج في الدفع

من أهم الأسس الفقهية في هذا الباب هو أن حق الدفاع ليس مطلقاً، بل مقيد بضابط "التناسب"، فيجب على المدافع أن يستخدم الوسيلة الأخف ضرراً الممكنة لرد العدوان؛ فقد أجمع الفقهاء على وجوب التدرج في وسائل الدفاع، من الأسهل إلى الأشد. فيبدأ بالإنذار والتحذير، ثم بالدفع باليد، فإن لم يندفع فبالعصا، فإن لم يندفع فبالجرح، ولا يلجأ إلى القتل إلا إذا توقف دفع العدوان عليه. فإن لجأ إلى مرتبة أشد مع إمكانية الاكتفاء بما هو دونها، كان ضامناً²¹. هذا الشرط العقلي والشرعي يضمن أن يبقى الدفاع في حدوده الضرورية، ويمنعه من التحول إلى عدوان أو انتقام، وألا تهدر موارد الأمة العسكرية بدون سبب عقلائي، ومبدأ التدرج هو ما كان معمولاً به في حرب الإسناد، ابتداءً من الحرب النفسية والإعلامية ثم المشاغلة ثم استهداف البنية التحتية ثم التدرج في سلّم المواجهة، يقول (السيد نصر الله) عن التدرج في المواجهة مع العدو: "هو الذي يعلن الحرب، هو الذي يتجاوز الخطوط الحمراء، هو الذي يسفك الدماء في كل يوم، وليس نحن، نحن ما زلنا في ردّ الفعل، وفي ردّ الفعل البطيء، وفي ردّ الفعل المتأخر أيضاً... يعلم الجميع بأن العدو الإسرائيلي قبل أسابيع قام بالإعتداء على الضاحية الجنوبية

17 الطوسي، محمد بن الحسن: تهذيب الأحكام، ج 10 ص 245. & سنن الترمذي، أبواب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله، حديث رقم 1421. (بلفظ قريب)

18 الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، ج 5 ص 54 (كتاب الجهاد، باب من قتل دون مظلّمته). & النووي، يحيى بن شرف: شرح صحيح مسلم، ج 2 ص 165.

19 الخميني، روح الله: تحرير الوسيلة، ج 1 ص 487 (كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسائل الدفاع). & السيوطي، جلال الدين: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، ص 84.

20 المكارم الشيرازي، ناصر: القواعد الفقهية، ج 1 ص 175 (في شرح قاعدة لا ضرر). & ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد: المغني، ج 9 ص 334.

21 النجفي، محمد حسن: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج 41 ص 651 (كتاب الحدود والتعزيرات، فصل في الدفاع).

في تجاوز لكل الخطوط الحمراء، يعني الذي ذهب بالأمور في لبنان وفي هذه الجبهة إلى هذا المستوى من التصعيد هو العدو²².

أدرك (السيد حسن نصر الله) أهمية الإعلام كسلاح استراتيجي لإعادة تشكيل الوعي الجماهيري وتفكيك "الهيمنة المعلوماتية الغربية والإسرائيلية". واعتمد خطابًا إعلاميًا مزدوجًا يستهدف جمهور المقاومة لرفع المعنويات، والداخل "الإسرائيلي" لزعة الروح المعنوية. ويستخدم الإعلام لنشر رسائل المقاومة وتعبئة الجماهير، وعلى هذا الأساس يرى (السيد نصر الله) أن دعم صمود غزة ومقاومتها، حتى لو كان رمزيًا، يساهم في رفع معنويات الشعوب العربية والإسلامية وتحدي صورة "الجيش" الإسرائيلي "الذي لا يُقهر". ويعتبر (السيد حسن نصر الله) أن صمود غزة وقدرتها على إلحاق الأذى بـ "إسرائيل" يساهم في خلق توازن ردع ويُظهر هشاشة "الجبهة الداخلية الإسرائيلية". إن عبارة "إسرائيل" أو "هن من بيت العنكبوت" هي استعارة قرآنية تستخدم لوصف ضعف الأوثان، وتوظيفها يحمل دلالة أيديولوجية بأن قوة العدو وهمية وزائلة أمام الإيمان والمقاومة الحقة، وبدأ تكريس عقيدة "بيت العنكبوت" بعد التحرير عام 2000، حيث أطلق السيد (السيد حسن نصر الله) هذا الرمز الديني القرآني بهدف ضرب معنويات المجتمع "الإسرائيلي" ("كي الوعي المعاكس")، وفي المقابل رفع معنويات الشعوب العربية والإسلامية، يقول (السيد نصر الله): "إن التمادي في استهداف المدنيين سيدفع المقاومة إلى إطلاق الصواريخ واستهداف مستعمرات جديدة لم يتم استهدافها في السابق"²³.

التفصيل الثاني: وجوب مبادرة العدو

الاستعداد الدائم للقتال والمبادرة إلى مصادر الخطر واستباقها مبدأ عقلاني مبني على أسس آيات من القرآن الكريم وروايات من السنة المطهرة، يقول -تعالى-: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...) [الأنفال: 60]، ولا يجب أن يكون الإعداد لحظيًا كرد فعل لأسباب خارجية ولكن يستفاد من الآية أن الإعداد يجب أن يكون مستدامًا²⁴، يقول مفسرون أن "القوة" المذكورة في الآية هي ذكور الخيل، و"الرباط" هي إنائها²⁵، أي ما يضمن استدامة مصادر القوة (توالد الخيل) والحفاظ على الاستعداد بشكل دائم، من الشواهد الأخرى أن الآية تحدثت عن أعداء آخرين غير معلومين يجب الاستعداد لهم "وأخرين من دونهم لا تعلمونهم" ما يؤكد على أن الاستعداد لا يجب أن يكون "رد فعل" فقط على العدو الظاهر، بل أن يكون حالة مستدامة للعدو المحتمل.

ويستفاد من الآية أنه إذا ثبت بالقرائن القاطعة والشواهد المؤكدة أن العدو قد أتم استعداداته، وحشد قواته، وعزم بشكل أكيد على شن هجوم وشيك ومباغت، فإنه يجوز للدولة المسلمة،

²² كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله حول التطورات الأخيرة 25-8-2024.

²³ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في ختام المسيرة العاشورائية الكبرى 17-7-2024.

²⁴ المكارم الشيرازي، ناصر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج5، ص470.

²⁵ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج3، ص192.

بل قد يجب عليها، أن تبادر بتوجيه ضربة استباقية لشل قدرة العدو على الهجوم. وهذا لا يُعتبر "جهاداً ابتدائياً" محرماً في زمن الغيبة، بل هو الصورة الأكثر تطوراً من "الجهاد الدفاعي". فالانتظار حتى تقع الضربة الأولى قد يعني الهلاك، وهو ما يتعارض مع واجب حفظ النفس والأمة²⁶، وهو ما يتضمن في المذاهب الأخرى ضمن مفهوم "الحرابة"، أي حالة العداء الفعلي أو المحتمل، وامتلاك القوة والشوكة التي تهدد المسلمين أو تمنع الدعوة²⁷، وهو لازم في طول مقاصد الشريعة العليا في حفظ النفس والدين²⁸.

والرواية عن الإمام عليه (عليه السلام): " ... فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ وَ إَمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ وَ شَمِّرْ لِحَرْبٍ مِّنْ حَارِبِكَ وَأَدْغِ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ، وَأَكْثِرِ الْإِسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ وَيُعِينُكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"²⁹، يقول (ابن أبي حديد المعتزلي): "أي أبرز له و لا تستتر عنه في المدينة التي أنت فيها، وأصحر الأسد من خيسه إذا خرج إلى الصحراء، و شمر فلان للحرب إذا أخذ لها أهبطه"³⁰، حيث أن الخروج لملاقاة العدو يعطي مرونة في المواجهة³¹ ويخفف من الخسائر المحتملة ويقلل من نقاط الضعف، وهو من صلاحيات الإمام (الحاكم الشرعي) وحده، فلا يجوز للأفراد أو الجماعات إعلانه أو القيام به. فالإمام (أو نائبه العام) هو الذي يقدر المصلحة، ويوازن بين القدرة والمفسدة، ويجهز الجيوش، وله فقط صلاحية منح الشرعية للحرب (عقد الألوية)³².

ويرى (السيد حسن نصر الله) أن المقاومة ليست مجرد رد فعل، بل هي مبادرة قادرة على فرض قواعد اشتباك جديدة، كما تجلّى في عملية "طوفان الأقصى". ويُؤطر (السيد حسن نصر الله) المقاومة ليس فقط كواجب ديني أو قومي، بل كحق طبيعي للشعوب في الدفاع عن وجودها وكرامتها وشرفها ووطنها في مواجهة العدوان والاحتلال. ويعتبر أن سلاح المقاومة ضروري للدفاع عن لبنان وفلسطين، وأن أي محاولة لنزع سلاحها "جنوناً محضاً" وعملاً "إسرائيليّاً". ويؤكد على "وحدة القضية والمصير والمعركة" مع الفصائل الفلسطينية. يعتقد (السيد حسن نصر الله) أن القوة والمقاومة المسلحة هما السبيل الوحيد لاستعادة الحقوق والأراضي المحتلة، وأن المفاوضات والتسويات السلمية مع "إسرائيل" أثبتت فشلها وعدم جدواها، يقول (السيد حسن نصر الله) أن طريق تحرير فلسطين هو "طريق المقاومة والانتفاضة الجادة والحقيقية"، وليس عبر المفاوضات أو التسويات السياسية مثل اتفاق (أوسلو). هذا النهج يؤكد أن القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العدو.

²⁶ المنتظري، حسين علي: دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ج 2 ص 450.

²⁷ & السرخسي، محمد بن أحمد: المبسوط، ج 10 ص 3.

²⁸ النجفي، محمد حسن: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج 21 ص 3.

²⁹ الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص 408.

³⁰ ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 126.

³¹ الأخوندي، مصطفى: جهاد در آينه روايات، ج 1، ص 269. (بالفارسية)

³² الخميني، روح الله: ولاية الفقيه (الحكومة الإسلامية)، ص 50. & النجفي، محمد حسن: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج 21 ص 11.

& ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد: المغني، ج 9 ص 163.

ويرى (السيد حسن نصر الله) أن قوة حزب الله العسكرية تشكل رادعاً استراتيجياً يحمي لبنان ويساهم في دعم القضية الفلسطينية، وأن أي ضعف لحزب الله سيضع "إسرائيل" على مزيد من "العدوان". يصف السيد (حسن نصر الله) بأنه مهندس معادلات ردع جديدة، نجح في ترسيخ مفهوم أن "إسرائيل" أوهن من بيت العنكبوت". وقد عمل على تفكيك صورة الجيش الذي لا يُقهر وتحويلها إلى عقدة وجودية في العقل "الإسرائيلي". إن نصرته غزة وفلسطين، والمقاومة بشكل عام، هي جزء لا يتجزأ من هذه الاستراتيجية الأيديولوجية والنفسية الرامية إلى كسر صورة العدو الخارق وإظهار ضعفه وهشاشته. وتعد فلسفة "كسر هيبة العدو"، التي اعتمدها منذ حرب 2006، محوراً أساسياً في هذا الدعم.

يلتزم حزب الله بمبدأ "ولاية الفقيه" المتمثل في قيادة "جبهة المقاومة"، وهذا الالتزام يربط دعم القضية الفلسطينية بشكل وثيق بالأهداف الاستراتيجية للمشروع الحضاري الإسلامي في المنطقة والعالم، حيث تعتبر "جبهة المقاومة" القضية الفلسطينية قضية مركزية. ويؤكد (السيد حسن نصر الله) افتخاره بالانتماء إلى حزب الله بمفهومه الحضاري ويسجل اعتزازه الدائم بطاعة "الولي الفقيه" باعتباره قائد المشروع الحضاري الإسلامي، وفي المقابل ينظر (السيد حسن نصر الله) إلى "الصهيونية" كأيديولوجية عنصرية توسعية تهدف إلى الهيمنة على المنطقة وتدمير الهوية العربية والإسلامية، ويؤكد في خطاباته على أن الصراع مع "إسرائيل" ليس مجرد نزاع حدودي، بل هو صراع وجودي ضد مشروع استيطاني يهدد المنطقة بأكملها. ويربط الأحداث المختلفة، مثل حرب عام 2006، بالمشروع الصهيوني الأمريكي. ومن هذا المنطلق، فإن دعم فلسطين وغزة يعتبر جزءاً لا يتجزأ من مقاومة هذا المشروع "الصهيوني". ويعتبر (السيد حسن نصر الله) أن "إسرائيل" تمثل الخط الأمامي لقوى الاستكبار والاستعمار الغربي. ويرى علماء الشيعة، وفقاً له، أن فلسطين ملك للشعب الفلسطيني يجب أن تعود إليه، وأن "إسرائيل" كيان غير شرعي وغاصب يجب أن يزول من الوجود، يقول (السيد حسن نصر الله): "نحن اليوم بهذه الروح، نحن نواجه المعركة اليوم، وهذه ليست معركة جديدة، هذه معركة ممتدة منذ ما قبل 1948 منذ قيام هذا الكيان"³³.

تعتبر القضية الفلسطينية بالنسبة لـ(السيد حسن نصر الله) أحد أهم مظاهر الصراع بين الاستكبار وجبهة المقاومة؛ حيث يرى (السيد حسن نصر الله) أن "إسرائيل" ليست فقط كيان محتل لأراضٍ عربية وإسلامية، بل كيان وظيفي لخدمة الاطماع الاستعمارية والأجندة الاستكبارية، وأن مقاومة هذا الاحتلال ليست واجباً فلسطينياً أو وطنياً فحسب، بل هي مسؤولية دينية تشمل الأمة الإسلامية بأسرها، يظهر ذلك جلياً في خطاباته التي تركز بشكل كبير على "تحرير فلسطين" كتكليف شرعي، يقول (السيد حسن نصر الله): "... في هذه المعركة، التي هي

³³ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله التي ألقاها في افتتاح الأمسيات القرآنية بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك. 14-3-2024.

معركة الحق والباطل، معركة الإنسانية مقابل التوحش والهمجية التي تُمثّلها أميركا وبريطانيا وإسرائيل وبعض دول الغرب"³⁴.

الركن السادس: السنن الإلهية في صراع الحق مع الباطل

يؤمن (السيد حسن نصر الله) بأن "هذه الدماء الزكية التي تنزف... لا بد أن تنتصر على السيف، وهذه هي سنة الله"، هذه العبارة هي خلاصة لمفهوم عميق بأن التضحية والسمود، حتى لو كانت النتيجة نزيف الدماء، سُكّل بالنصر في نهاية المطاف، وذلك وفقاً لقانون إلهي ثابت وهو: (أن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين)، ويعبر السيد (السيد حسن نصر الله) عن إيمانه الراسخ بالنصر، قائلاً: "نحن ان شاء الله موعودون بالنصر وسوف ننتصر في هذه المعركة كما انتصرنا في غيرها"، هذا الوعد الإلهي يعطي المقاومة سنداً إيمانياً قوياً ويدفع إلى الصمود في وجه التحديات، لأن الصمود سيُغير "الواقع الإقليمي والواقع الدولي"، تُقدم المقاومة على أنها قائمة على "مؤمناً بالله عارفاً به"، وأن النصر ليس مجرد نتيجة لموازن القوى المادية، بل هو ثمرة للإرادة الإيمانية العارفة بالله، وهو ما يتوافق مع السنن الإلهية التي تجعل النصر حليف من يصدّق في إيمانه وجهاده.

ويؤمن (السيد نصر الله) أن الشهادة ليس خاتمة المطاف في صراع الحق مع الباطل، بل إن دماء الشهداء هي التي تذكي عزيمة من بقي ليحمل الراية حتى بلوغ الغاية المنشودة، يقول (رض): "أما نحن الذين بقينا بعده، فسنكمل طريقه وسنعمل في الليل والنهار لنحقق أهدافه، وسنحمل رايته في كل الساحات والميادين والجبهات، وستتعاضم انتصارات محور المقاومة ببركة دمانه الزكية كما كبرت بحضوره الدائم وجهاده الدؤوب، كما أن القصاص العادل من قتلته المجرمين وهم أسوأ أشرار هذا العالم سيكون مسؤولية كل المقاومين والمجاهدين على امتداد العالم وأمانتهم وفعلهم"³⁵.

³⁴ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله خلال الاحتفال التكريمي بالشهداء الذين ارتقوا على طريق القدس.

³⁵ نصر الله، السيد حسن: يحييهم ويحيونه، ص8.

الأصل الثاني: مبادئ العلاقات الخارجية (حفظ الكرامة والمعاملة بالمثل)

عُرف التأصيل الفقهي للعلاقات الدولية في الإسلام قديماً بـ "فقه السير"، وهو ليس قاعدة واحدة، بل منظومة متكاملة من المبادئ والقواعد المستمدة من القرآن والسنة والمقاصد العليا للشريعة، والتي تهدف إلى تنظيم علاقة الدول والشعوب المسلمة بغيرها من الدول والشعوب على أسس من العدل وحفظ الكرامة الإنسانية، وما يهمننا في سياق الحديث عن مباني أفكار (السيد نصر الله) حول القضية الفلسطينية هو ركنين أساسيين ضمن هذه المنظومة:

الركن الأول: كرامة الإنسان ووحدة الأصل البشري

هذا هو المبدأ الفلسفي والأخلاقي الأعلى الذي يحكم رؤية الإسلام للعالم، حيث يرى أن الناس كلها، بغض النظر عن الدين أو العرق، تشترك في أصل واحد وهو الإنسانية، وأن الله -تعالى- كرم بني آدم جميعاً؛ يقول -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، ويقول الإمام علي (عليه السلام): "النَّاسُ صِنْفَانِ إِمَّا أَحْ لَكَ فِي الدِّينِ، أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ"³⁶، اعتماداً على هذا المبدأ فإن العلاقة الطبيعية بين الشعوب بمختلف أديانها وأعراقها لا يجب أن تكون مدعاة للتنازع، بل مدعاة للتعارف والتعاون؛ يقول -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]، وهو ما يؤسس لمبدأ احترام الإنسان ووجوب حفظ كرامته، ويوجب رد العدوان ورفع الظلم عن كل إنسان، لأنها تتعارض مع مقصد التعارف وتهدر الكرامة الإنسانية، انطلاقاً من هذا الأصل يقول (السيد نصر الله): "... هذه هي ثقافة الاستسلام هذا هو خيار الاستسلام الذي يوصل لهذا الذل، أما كلفة المقاومة لا، كلفة المقاومة تجعل إسرائيل تهتز وإسرائيل تتزلزل وأمريكا تهتز والناو تهتز وكل العالم يأتي إلى منطقتنا، هذا الذي فعله أهل غزة الذي يعجز العالم ومليارا مسلم ان يدخلوا إليهم طعماً أو دواءً"³⁷، وفي موضع آخر يقول (رض): "العودة عن الجهاد هو الذي يأتي بالذل، أمير المؤمنين عليه السلام أليس هو القائل 'إنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه... فهو درع الله الحصينة وجنته الوثيقة... أمّا من يتخلف عن الجهاد ألبسه الله ثوب الذل وديث بالصغار والقماءة"³⁸،³⁹.

الركن الثاني: مبدأ المعاملة بالمثل

يوفر هذا المبدأ إطاراً عملياً لإدارة العلاقات في غياب نصوص خاصة أو معاهدات محددة، فللدولة المسلمة أن تعامل الدول الأخرى بنفس الطريقة التي تُعامل بها، حفظاً لمصالحها وهيبته، ويُستشف هذا من قوله -تعالى-: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

³⁶ الرضي، الشريف: نهج البلاغة ج3، ص84.

³⁷ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في مهرجان القادة الشهداء 16-2-2024.

³⁸ الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج15، ص14، ح19913.

³⁹ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في الاحتفال التأييني بمناسبة مرور أسبوع على رحيل فقيه الجهاد والمقاومة الحاج محمد حسن ياغي 2024-01-05.

عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، ورغم أن سياق الآية في القتال، فقد استنبط منها الفقهاء مبدأً أوسع في "المكافأة والمماثلة" في التعامل، سواء في الحرب أو السلم، ما يسمح للدول والمجموعات المسلمة بالمرونة في إدارة علاقاتها، فيمكنها أن تمنح امتيازات لدولة أخرى مقابل امتيازات مماثلة، أو تفرض قيوداً رداً على قيود مفروضة عليها. وهو مبدأ معمول به في القانون الدولي الحديث، ويضمن التوازن والندية في العلاقات الدولية⁴⁰.

ويرى (السيد نصر الله) أن معركة "سيف القدس" ومن بعدها "معركة طوفان الأقصى" هي رد فعل على الاعتداءات "الإسرائيلية" في القدس وحي الشيخ جراح، وفي سياق المعركة مع العدو، يقول (السيد نصر الله): "من يُهدّدنا بالتوسعة، أنا أقول له، طبعاً نحن أناس عقلاء ودقيقون ومنضبطون، ولكن تُوسّع تُوسّع، تُوسّع تُوسّع، بتعلّي منعلّي، ليس هناك مشكلة بهذا الموضوع"⁴¹، وهو ما عُرف عن أسلوب تعامل حزب الله مع العدو "الإسرائيلي" من خلال تأسيس "معادلات الردع"، يقول (السيد نصر الله): "من الطبيعي أن المقاومة أعلنت التزامها وعزمها على الرد على هذا العدوان الغاشم، من أجل تثبيت المعادلات التي بُذلت من أجلها الكثير من الدماء والتضحيات خلال عقود من الزمن، وهذا أمر ما كان يُمكن أن نتسامح فيه على الإطلاق"⁴²، ويقول في موضع آخر: "يومها عندما يقف إطلاق النار في غزة سنوقف إطلاق النار في الجنوب وعندما يقوم العدو الإسرائيلي بأي عمل سنعود للعمل على ضوء القواعد والمعادلات، نحن مقاومة وجزء من معادلة مسؤوليتها منع الاعتداء على لبنان وردع العدو من الاعتداء على لبنان، وستكون ردودنا طبعاً مُتناسبة"⁴³، ويقول (رض): "نساؤنا وأطفالنا الذين قُتلوا في هذه الأيام في النبطية وفي الصوّانة وفي غيرها من قرى الجنوب سوف يدفع العدو ثمن سفكهم لدمائهم دماء"⁴⁴.

ثم قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: 92]، الآية التي تؤسس لمفهوم "الأمة" كوحدة عقدية وسياسية وحضارية، تتجاوز الحدود الجغرافية والأعراق والألوان. فهي كيان واحد لا يتجزأ، يقوم على أساس عبودية رب واحد. وهذا التأسيس هو الذي يمنح فكرة الوحدة الإسلامية بُعدها العالمي، ويجعلها أساس الهوية الجامعة لكل المسلمين⁴⁵.

الأصل الثالث: محورية الوحدة الإسلامية

⁴⁰ المكارم الشيرازي، ناصر: القواعد الفقهية، ج 1 ص 331 (في سياق قاعدة الإلزام وقواعد العدل). & الطوسي، محمد بن الحسن: المبسوط في فقه الإمامية، ج 2 ص 12 (في كتاب الجهاد، باب الهدنة). & أبو زهرة، محمد: العلاقات الدولية في الإسلام، ص 81.

⁴¹ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله بمناسبة يوم الجريح المقاوم 13-02-2024.

⁴² كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله حول التطورات الأخيرة 25-8-2024.

⁴³ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله بمناسبة يوم الجريح المقاوم 13-02-2024.

⁴⁴ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في مهرجان القادة الشهداء 16-2-2024.

⁴⁵ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج 14 ص 318. & قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج 4 ص 2407.

مبدأ "الأخوة الإيمانية" هو أساس متجذر في نصوص قطعية من القرآن الكريم والسنة النبوية، وتعدُّ هذه الوحدة مقصداً من أهم مقاصد الشريعة، وضرورة من ضرورات حفظ كيان الأمة، ويمكن تفصيل الأسس التي بني عليها هذا الأصل على النحو التالي:

أولاً: التأسيس القرآني المباشر

أرسى القرآن الكريم هذا المبدأ في آيات محكمات لا تقبل التأويل، مما يجعل الوحدة واجباً شرعياً ومفهوماً عقدياً، مثل: قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10]، هذه الآية هي النص التأسيسي المركزي، والتي تبندى بأداة الحصر "إنما" التي تُفيد قصر علاقة المؤمنين ببعضهم على "الأخوة"، ونفي أي علاقة أخرى تناقضها، كالعصبية أو القبلية أو القومية. ثم رتب على هذه الأخوة حكماً شرعياً عملياً وهو "فأصلحوا"، مما حوّل المبدأ الأخلاقي إلى واجب فقهي يقتضي التدخل الإيجابي لإنهاء أي نزاع بين المسلمين. فالأخوة هنا ليست مجرد شعار عاطفي، بل هي رابطة تُنتج حقوقاً وواجبات، منها ما هو مسلم به مثل حرمة الدم والمال والعرض، والبعض الآخر يغيب عن الأذهان مثل وجوب النصرة والتكافل والإصلاح⁴⁶.

ثم قوله -تعالى-: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، حيث تتضمن الآية أمرين واضحين: أمرٌ بالوحدة "وَاعْتَصِمُوا"، ونهيٌ عن الفرقة "وَلَا تَفَرَّقُوا"، حيث فسّر "حبل الله" بالقرآن الكريم، وبدين الإسلام، وبعهد الله وتفسيرات أخرى. والاعتصام به يعني التمسك بالجامع المشترك الذي يوحد الأمة. والنهي عن التفرق هو نهي تحريم، يجعل من كل دعوة إلى الانقسام أو التشرذم على أسس غير إسلامية دعوة باطلة وممارسة محرمة شرعاً. فالوحدة هنا فريضة، والفرقة معصية⁴⁷.

ثانياً: التأسيس في السنة النبوية

جسدت السنة النبوية القولية والفعلية مبدأ "الوحدة الإسلامية" ورسّخته في المجتمع الإسلامي الأول، ومن السنة القولية رواية الجسد الواحد: روي عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"⁴⁸، ويؤسس هذا الحديث لمفهوم "التكافل العضوي" والشعور المشترك. فكما أن ألم جزء من الجسد هو ألم للجسد كله، فإن معاناة أي جزء من الأمة هي مسؤولية الأمة كلها. وهذا يقتضي وجوب النصرة والمواساة والمناصرة العملية بين المسلمين، كذلك، حديث البنیان المرصوص: حيث روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

⁴⁶ الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج 18 ص 323. & السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 800.

⁴⁷ الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، ج 1 ص 414. & الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج 7 ص 89.

⁴⁸ الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، ج 2 ص 166 (كتاب الإيمان والكفر، باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض). & صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم 2586.

"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا" وشبَّك بين أصابعه⁴⁹، حيث يُؤسس هذا الحديث لمفهوم "التكافل الهيكلي" والدعم المتبادل. فالعلاقة بين المؤمنين ليست مجرد تعاطف، بل هي علاقة دعم وتقوية، بحيث يكون كل فرد أو جماعة سنداً وعاوناً للآخر. وهذا يقتضي التعاون في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتقوية كيان الأمة.

ثالثاً: الآثار والمقاصد الشرعية

يترتب على هذا التأسيس آثار فقهية وعملية جذرية، حيث تُعد الوحدة من "مقاصد الشريعة" الضرورية، من أجل حفظ الدين؛ فالأمة المتفرقة المتنازعة لا يمكنها حفظ دينها أو نشره، خاصة إذا كانت الوحدة شرطاً لحماية بيضة الإسلام (كيان الدولة) من الأخطار الداخلية والخارجية. ومن أجل حفظ النفس؛ فالفرقة تؤدي إلى الاقتتال الداخلي وإهدار الدماء، والوحدة تؤدي إلى حقنها وتحقيق الأمن. ومن أجل تحقيق القوة والمنعة؛ فالأمة الموحدة تكون مرهوبة الجانب، قوية في مواجهة أعدائها، وقادرة على حماية مصالحها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

يسعى حزب الله على لسان أمينه العام الشهيد (السيد حسن نصر الله) إلى تقديم نفسه كقوة تتجاوز الطائفية الضيقة، من خلال تبني خطاب إسلامي شامل وتأكيد التضامن مع القضية الفلسطينية من منطلق الواجب الديني، لا المصالح البرجماتية، يظهر ذلك في اهتمام (السيد نصر الله) بإعلان الإمام (الخميني) "يوم القدس العالمي" في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان ورغبته في التأكيد على تحويل القضية الفلسطينية إلى واجب عالمي متجدد، ووصفه بأنه "يوم الإسلام" و"يوم التعبئة الإسلامية العامة"، ويتبنى (السيد نصر الله) فتوى الإمام (الخميني) بتحريم التطبيع والاعتراف بالكيان المؤقت، وهي فتوى مبنية على الأصول السابقة بصفتها حكم فقهي قاطع بالاعتراف بالكيان بأي شكل من أشكال الاعتراف بما يُعتبر بمثابة خيانة للإسلام وتفريطاً بحقوق الأمة وإضفاءً للشرعية على الاحتلال، ويهتم (السيد نصر الله) باستدعاء الأمثلة التي تدفع نحو هذه الصيغة من العلاقة (التكافلية الوحدوية)، يقول: "...ذهب الإخوة إلى هناك ليساعدوا في التدريب والتأهيل وإدارة العمليات والدفاع عن المظلومين في البوسنة الذي كانت تُرتكب بحقهم المجازر المهولة، وبالمناسبة لأنه دائماً يُحكى شيعة وسنة، وهم أهل السنة، لا يوجد شيعة، لم يكن هناك شيعة بالحد الأدنى في البوسنة عندما غادرت هذه المجموعة العزيزة من الإخوة من كوادرننا وقادتنا ومكثت سنوات هناك..."⁵⁰.

وحتى في حديثه عن بعض المسائل الدينية المرتبطة بمذهب أهل البيت، يحاول دوماً أن يكون واضحاً أمام المتلقين من المذاهب والأديان الأخرى، يقول: "الموسوعة التي جمع فيها الأحاديث المرتبطة بالإمام المهدي عليه السلام، جمع ما يقارب 2000 حديث من 400 مصدر

⁴⁹ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه: الأمالي، ص418. & صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، حديث رقم 481.

⁵⁰ كلمة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله في الاحتفال التكريمي للشهيد القائد طالب سامي عبد الله (الحاج أبو طالب) (19-06-2024).

أيضاً من مختلف كتب المسلمين الشيعة والسنة... كان يجيب أود التأكيد وأقول لكل المسلمين أن هذه القضية قضية الإمام المهدي عليه السلام ليست قضية شيعية وإنما هي قضية إسلامية قضية متسام عليها في كتب المسلمين"51.

كذلك، في سياق حديثه عن التعداد (العدّ) السكاني داخل لبنان وهي قضية حساسة ترتبط باتفاق الطائف وعدالة التمثيل النيابي، يحاول إعادة صياغة التناقض والصراع ويخرجه من إطاره المذهبي، إلى إطار المقاومة ضد الاستكبار، يقول: "عندما تكلمت عن العدّ لم أكن أقصد العدّ طائفاً مسليماً ومسيحيين وشيعة وسنة ودروز، أنا ولا يوم أتكلم طائفاً، كنت أتكلم عن العدّ من مع المقاومة ومن ليس مع المقاومة، من يريد أن يتضامن مع غزة وأن يقف إلى جانب غزة ويدافع عن غزة ومن لا يريد ذلك؟ ... الهدف: هو حشد الجماهير وتعبئتها، من خلال التأكيد على أهمية الوحدة والوعي في مواجهة أمريكا، وتجنب الانقسام الذي يخدم مصالحها"52.

الأصل الرابع: قاعدة "نفي السبيل"

تُعدُّ "قاعدة نفي السبيل" من القواعد الفقهية الكبرى في الشريعة الإسلامية، وتؤدي دوراً محورياً في تنظيم علاقة المسلمين بغيرهم على المستويين الفردي والدولي، بما يحفظ كيان الأمة الإسلامية واستقلالها، وتُعني القاعدة، بشكل أساسي، بنفي وإبطال كل حكم أو شرط أو علاقة من شأنها أن تجعل لغير المسلم سلطةً أو علوًا على المسلم، وتستند القاعدة في تأسيسها إلى دليل قرآني قطعي، وهو قول الله -تعالى- في سورة النساء: (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) [النساء: 141]. يُعدُّ هذا النص هو المستند الأساسي للقاعدة، حيث تنفي الآية بشكل قاطع ومؤبد بلفظة "لن" أن يكون لغير المسلم سبيلٌ على المؤمن، والسبيل هنا يُقصد به الطريق للتسلط والغلبة والسيطرة، سواء كانت سياسية، أم اقتصادية، أم تشريعية، أم قضائية. وذهب جمهور الفقهاء إلى أن النفي في الآية هو نفي تشريعي، أي أن الله -تعالى- أبطل في شرعه كل ما من شأنه أن يثبت سلطة لغير المسلم على المسلم، وهو ما يترتب عليه بطلان أي عقد أو تصرف يؤدي إلى هذه النتيجة. بينما رأى فريق آخر أن النفي إخبارٌ بما سيتحقق في الآخرة من غلبة المؤمنين، ولكن الرأي الأول هو المعتمد في تأسيس القاعدة الفقهية وتطبيقاتها العملية.

وتعدُّ أبرز التطبيقات الفقهية في باب العلاقات الدولية حيث تُستخدم القاعدة لتأسيس مبدأ استقلال الدولة المسلمة ورفض أي شكل من أشكال الهيمنة الأجنبية أو التبعية السياسية

51 كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في الاحتفال التكريمي لسماحة العلامة المحقق والمجاهد الشيخ علي كوراني 05-31-2024.

52 كلمة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله في الاحتفال التكريمي للشهيد القائد طالب سامي عبد الله (الحاج أبو طالب) 19-06-2024.

والاقتصادية التي تنتقص من سيادة الأمة وقرارها المستقل⁵³، فتعد قاعدة "نفي السبيل" صمام أمان تشريعي لحماية هوية المسلمين واستقلالهم، ومنع أي شكل من أشكال الخضوع والتبعية لغيرهم، وهي قاعدة مرنة تتسع لتشمل مختلف النوازل والمستجدات في حياة المسلمين، ما كان يمثل أصلاً ومرتكزاً أساسياً في خطاب (السيد نصر الله)، يقول: "أمريكا تسعى للهيمنة على المنطقة والسيطرة على ثرواتها ومقدراتها، وأنها تستخدم القوة والعنف لتحقيق هذه الأهداف ... أمريكا تسعى إلى تقويض استقلال لبنان، وإضعافه، وفرض سيطرتها عليه من خلال التدخل المباشر في شؤونه الداخلية، ومحاولة نزع سلاح المقاومة، والتحريض على الفتنة ... ونحن قوم لا نخضع ولا نذل ولا نقبل الأعتاب ... أن نقبل بأن تستباح دماؤنا وكراماتنا وبلداننا وخيراتنا وشعوبنا ونُسلم مقدساتنا للصهاينة، فلا نحن لن نقبل بذلك".⁵⁴

كما يربط (السيد حسن نصر الله) الأحداث المختلفة في العراق والشام وفلسطين بمشروع صهيوني أمريكي يهدف إلى تدمير لبنان وفرض السيطرة على العالم العربي، أطلقت عليه وزيرة الخارجية الأميركية مصطلح "الشرق الأوسط الجديد"، يهدف إلى سيطرة الإدارة الأميركية على المنطقة بمشاركة "إسرائيل"، مع إزالة حركات المقاومة في اليمن ولبنان وفلسطين وسوريا وإيران. ولذلك، فإن نصرته غزة وفلسطين هي جزء أساسي من مواجهة هذا المشروع الهيمني. يسعى (السيد حسن نصر الله) إلى بناء شبكة تحالفات إقليمية ("محور المقاومة") تشمل إيران وسوريا وفصائل المقاومة الفلسطينية واليمن وغيرها لمواجهة الهيمنة الصهيونية-الأمريكية في المنطقة، ويرى إن دعم غزة وفلسطين يساهم في تعزيز هذا المحور وتقوية جبهة المقاومة الشاملة. في فكر (السيد نصر الله)، لا يُنظر إلى "إسرائيل" ككيان معزول، بل كقاعدة متقدمة للمشروع "الإمبريالي الغربي" بقيادة الولايات المتحدة في المنطقة. ويعتبر أن الصهيونية تهدف إلى الهيمنة على مقدرات المنطقة، وأن دعم "إسرائيل" من القوى الغربية هو جزء من هذا المخطط الأوسع. بالتالي، فإن نصرته فلسطين وغزة هي جزء من معركة أشمل ضد "الاستكبار العالمي" و"القوى الإمبريالية". ويرى أن المقاومة هي خط الدفاع الأخير في مواجهة "مشروع الشرق الأوسط الأميركي" "الإسرائيلي الجديد".

لتطبيق قاعدة نفي السبيل، وضع الفقهاء شروطاً وضوابط تضمن استخدامها في موضعها الصحيح، ومن أهم هذه الشروط:

• **تحقق العلو والسبيل:** يجب أن يؤدي التصرف أو العقد إلى ثبوت سبيل حقيقي لغير المسلم على المسلم. ولا يُعتبر كل تعامل أو علاقة سبيلاً منهياً عنه، بل المقصود هو

⁵³ المنتظري، حسين علي: دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ج2 ص455. & شلبي، محمد مصطفى: أحكام العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، ص215.

⁵⁴ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله بمناسبة يوم الجريح المقاوم.

ما يترتب عليه تسلط وهيمنة⁵⁵، لذلك لا نجد تطبيقات هذه القاعدة حاضرة في كل أشكال العلاقة مع المخالف، بل في حالة اختلال ميزان النديّة.

- **عدم وجود ضرورة مُلجئة:** لا تُطبق القاعدة في حالات الضرورة القاهرة التي تبيح للمسلمين الدخول في علاقات قد يكون فيها نوع من العلو الظاهري، وذلك عملاً بقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"، مع تقدير الضرورة بقدرها⁵⁶، فقد يكون السلم الأهلي في لبنان الذي تحقق باتفاق الطائف بمثابة الضرورة المُلجئة للتجاوز عن تطبيق القاعدة داخلياً، وتكون الأولوية في تطبيق القاعدة لإعطاء الأولوية للصراع الجذري مع المشروع الاستكباري في منطقة غرب آسيا.

⁵⁵ الموسوي البجنوردي، محمد: القواعد الفقهية، ج 1 ص 159. & القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس: الفروق، ج 3 ص 14.
⁵⁶ السبجاني، جعفر: قاعدة نفي السبيل، مجلة نصوص معاصرة، العدد 15، ص 98. & آل بورنو، محمد صدقي: الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، ص 234.

الأصل الخامس: قاعدة "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه"

تُعَدُّ قاعدة "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" إحدى القواعد الفقهية الراسخة والمؤثرة في التشريع الإسلامي وفقاً لمذهب أهل البيت والمذاهب الإسلامية الأخرى، وهي تمثل مبدأً عاماً لحفظ مكانة الإسلام وضمان تفوّقه المعنوي والتشريعي في كافة المجالات التي تحكم علاقة المسلم (أو المشروع الحضاري الإسلامي) بغيره. تعمل هذه القاعدة كضابط قانوني وسيادي يمنع أي حالة يكون فيها الإسلام في موضع دوني أو خاضع⁵⁷، وتستند القاعدة في مشروعيتها إلى حديث نبوي مشهور استدل به فقهاء أهل البيت والمذاهب الإسلامية الأخرى، وقد ورد الحديث كعلة تشريعية في عدة روايات، كما في صحيحة علي بن جعفر عن أخيه الإمام موسى الكاظم (عليه السلام): "... لأن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه"⁵⁸. هذا الاستخدام للمبدأ كعلة للحكم من قبل الإمام المعصوم منحه قوة تشريعية جعلت الفقهاء يعتمدون عليه كقاعدة مستقلة⁵⁹، إلى درجة اعتبار كبار الفقهاء، مثل (الشيخ الأنصاري)، أن هذه القاعدة من المسلّمات التي لا تحتاج إلى إثبات سنّدي مفصّل لشهرتها العملية وإجماع الطائفة على مضمونها، حيث تعمل كأصل حاكم يرجع إليه في فهم وتوجيه النصوص الأخرى⁶⁰.

تعني القاعدة أن أي حكم أو وضع قانوني يؤدي إلى جعل الإسلام أو المسلم أو المشروع الحضاري الإسلامي في مرتبة أدنى من مثيله غير المسلم هو وضع باطل ومرفوض شرعاً. فالعلو المقصود هنا هو علو اعتباري وتشريعي، وليس بالضرورة علو مادياً أو قهرياً. فهي تهدف إلى منع كل ما من شأنه أن يرمز إلى خضوع الدول الإسلامية أو الإسلام كمشروع حضاري أو أهله من عامة المسلمين لغيرهم⁶¹، وتظهر العلاقة الوثيقة بين هذه القاعدة وقاعدة "نفي السبيل"؛ فقاعدة "نفي السبيل" تركز على نفي السلطة والسيطرة الفعلية، بينما قاعدة "الإسلام يعلو" أوسع نطاقاً، حيث تشمل نفي أي نوع من أنواع الدونية أو الأفضلية لغير المسلم على المسلم، حتى لو لم تصل إلى حد السلطة الكاملة⁶².

بناءً على هذه القاعدة يُعَدُّ إبرام المعاهدات أو الأحلاف التي تعقدها الدول غير جائزة عندما تحتوي على بنود تمس بسيادتها، أو تجعلها في موضع التابع لغيرها، أو تفرض عليها شرطاً مُذلاً أو مجحفاً. فكل شرط يؤدي إلى غلبة غير المسلمين على المسلمين أو تسلطهم على شؤونهم يُعتبر باطلاً، والاستدلال هنا مركب من قاعدة "الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه" وقاعدة "نفي السبيل". فإذا كانت المعاهدة تفرض على الدولة المسلمة التزاماً مهيناً، كالتنازل عن

57 الموسوي البجنوردي، محمد: القواعد الفقهية، ج1 ص155. & الزحيلي، وهبة: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، ج1 ص451.
58 الحر العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج18 ص147. & البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى، ج6 ص205. (بلفظ قريب)

59 الخوني، أبو القاسم: مصباح الفقاهة، ج3 ص255.

60 الأنصاري، مرتضى: كتاب المكاسب المحرمة، ج1 ص176. & الشافعي، محمد بن إدريس: الأم، ج4 ص23.

61 المكارم الشيرازي، ناصر: القواعد الفقهية، ج1 ص49. & السيوطي، جلال الدين: الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، ص79.

62 السبجاني، جعفر: إرشاد العقول إلى مباحث الأصول، ج3 ص211. & العز بن عبد السلام، عبد العزيز: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1 ص86.

جزء من أراضيها أو ثرواتها قسراً، أو دفع إتاوة، أو قبول وصاية سياسية، فإنها تُنشئ "سبيلاً" واضحاً لغير المسلمين، وتجعل الإسلام في مرتبة "يُعلَى عليها"، وهو ما تهدمه القاعدة من أساسه. وقد نص الفقهاء على أن الصلح مع العدو لا يجوز إن كان على شرط فاسد يضر بالمسلمين أو يُضعف من شوكتهم⁶³، لذلك فإن المعاهدات الدولية والاتفاقات التي تكون مجحفة بالمسلمين فلهم الحق (بإذن ولي الأمر) في التمرد عليها، والتصرف على أساس عدم الاعتراف بها.

بناءً على ذلك، هذه القاعدة تمنع الاتفاقيات الاقتصادية وعقود القروض التي ترهن قرار الدولة المسلمة السياسي أو تستنزف ثرواتها لصالح دول أخرى، بحيث تصبح أداة للسيطرة والهيمنة. فالاقتصاد هو عصب الدولة، والسيطرة عليه تؤدي حتماً إلى السيطرة السياسية؛ حيث أن الهيمنة الاقتصادية هي من أشد أنواع "السبيل" في العصر الحديث، وهي وإن لم تكن غلبة عسكرية مباشرة، إلا أنها تُفقد الدولة استقلالها وتجعلها في مرتبة أدنى. لذا، فإن أي عقد أو اتفاق يؤدي إلى هذه النتيجة يُعد ممنوعاً لأنه يناقض مقصد الشارع في إعلاء كلمة الله وحفظ استقلال الأمة المسلمة⁶⁴.

وحيث أن "المقاومة" تشكّل حجر الزاوية في فكر (السيد حسن نصر الله) وحزب الله، ويرى أنها السبيل الوحيد لاستعادة الحقوق والأراضي المحتلة، وأنها أثبتت جدواها في تحقيق "انتصارات" على "إسرائيل"، مثل الانسحاب "الإسرائيلي" من جنوب لبنان عام 2000 وحرب عام 2006، لذلك، يحث (السيد حسن نصر الله) الشعوب العربية، وخاصة الفلسطينيين، على تبني نهج "المقاومة" ضد "الظلم والطغيان" الذي يمثلته الاحتلال "الإسرائيلي". وبالتالي، فإن دعم غزة وفلسطين هو دعم لنهج "المقاومة" الذي يعتبره (السيد حسن نصر الله) الضمانة الوحيدة لتحقيق التحرير وعلو الإسلام ونفي السبيل على المسلمين، يقول (السيد نصر الله): "نحن نتعلم من الحسين عليه السلام إباء الضيم، ورفض الذل والاستسلام للطغاة والمستكبرين والمتآمرين والمحتلين، للذين يريدون منا أن نعتزف بهذا الكيان الغاصب، المجرم، القاتل، المتوحش، المعتدي، المحتل، العنصري ... نقول لهم كما قال الحسين عليه السلام لأولئك الذين من قلب الحصار قالوا له انزل على حكم يزيد وعبيد الله بن زياد، يعني انزل على حكم الطاغية المستبد المعتدي الآثم القاتل المجرم، ماذا قال لهم أبو عبد الله الحسين عليه السلام وهو في قلب الحصار والعطش ومواجهة الموت: لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ لكم إقرار العبيد"⁶⁵.

الأصل السادس: وجوب نصره المستضعفين

⁶³ الخميني، روح الله: تحرير الوسيلة، ج 1 ص 485. & الزحيلي، وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته، ج 8 ص 5879.
⁶⁴ الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، ج 2 ص 381. & الزحيلي، وهبة: العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، ص 124.
⁶⁵ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في ختام المسيرة العاشورائية الكبرى 2024-7-17.

نصرة المستضعفين تُمثل ركناً وثيقاً في فلسفة العلاقات الخارجية في الإسلام، تأصيلها الفقهي يرتكز على آية قرآنية محكمة تُعتبر نصاً تأسيسياً لهذا المبدأ، وهي قول الله -تعالى-: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا) [النساء: 75]، حيث تُعد الصيغة الاستفهامية في الآية "وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ..." (ما المانع لكم من القتال؟) من أقوى صيغ الحث والتحضيض في اللغة العربية. وقد فهمها الفقهاء على أنها ليست مجرد سؤال، بل هي استفهام إنكاري وتوبيخي، يحمل في طياته أمراً جازماً وإلزاماً بالقتال. فالله تعالى يوبّخ المؤمنين على التقاعس عن نصره إخوانهم المضطهدين، وهذا التوبيخ لا يكون إلا على ترك واجب محتم. وعليه، فإن الآية تُؤسس لـ "وجوب" القتال من أجل هدفين متلازمين: "في سبيل الله" و"نصرة المستضعفين"، وقد ذهب مفسرون من أمثال الشيخ (ناصر مكارم الشيرازي) و(ابن كثير) إلى أن العطف بين "سبيل الله" و"المستضعفين" هو من باب عطف الخاص على العام للتأكيد والاهتمام، فالقتال دون المستضعفين هو بحد ذاته من أسمى مصاديق القتال في سبيل الله.

لذلك يُشدد (السيد حسن نصر الله) في خطاباته على أن الصراع مع الاحتلال "الإسرائيلي" ليس نزاعاً دينياً أو عرقياً، بل هو صراع ضد الاحتلال والظلم؛ هذا الفهم يحوّل القضية الفلسطينية من قضية وطنية أو مسألة قومية عربية إلى قضية دينية، ويظهر هذا جلياً في تركيز خطابه على رواية الصراع من منظور الضحايا والمستضعفين والمظلومين واستخدام الرموز التاريخية الدينية ("كربلاء العصر"، "يزيد العصر"، "حسين زماننا"، ..)، مما أكسب القضية بعداً إنسانياً ودينيًا يتجاوز الحدود السياسية، كما يعبر (السيد حسن نصر الله) عن القدس في خطابه بأنها "قضية الإسلام المركزية"، وأن التخلي عنها يتعارض مع مبادئ الإسلام، وينظر إلى فلسطين والقدس كرمز إسلامي مقدس يجب تحريره من الاحتلال الصهيوني، معتبراً أن الدفاع عن أرض المسلمين وتحريرها من أي احتلال هو واجب شرعي على كل مسلم قادر، ويرى أن الصراع مع "إسرائيل" هو صراع وجودي بين الحق والباطل.

تُصنّف الآية هذا النوع من القتال ضمن ما يُعرف بـ"الجهاد الدفاعي". فالجهاد في الفقه الإسلامي ليس هجومياً بالأساس، بل هو إما للدفاع عن بيضة الإسلام (كيان الدولة)، أو للدفاع عن المسلمين وحمائيتهم. وهذه الآية تُشرّع بوضوح القسم الثاني، وهو التدخل العسكري لإنقاذ جماعة مضطهدة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، يقول (السيد نصر الله): "هذا كمال أن يكون الإنسان كبيراً وواسعاً في أفقه، في اهتماماته، في فكره، في إنسانيته، في مسؤوليته تجاه هذه الدائرة الواسعة باتجاه العالم، تجاه كل مظلوم ومستضعف ومعذب إلى أي دين انتمى أو إلى أي عرق انتسب"⁶⁶، بمعنى أنها تُؤسس لمبدأ "التدخل الإنساني" بصيغة إسلامية، حيث يكون

⁶⁶ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في الاحتفال التكريمي لسماحة العلامة المحقق والمجاهد الشيخ علي كوراني العاملي.

الهدف هو رفع الظلم وتحرير الإنسان، وليس التوسع أو السيطرة⁶⁷، يقول (السيد نصر الله): "وهذا هو الفيصل اليوم بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، من يقف مع جبهة الحقّ اليوم ميزانه ومعياره أن يكون مع اليمين لأنّه بذلك يكون بحقّ مع فلسطين ومع غزة ومع بيت المقدس ومع كلّ مظلومي هذا العالم"⁶⁸.

ومع أن هذا الأصل وأدلته تؤسس لوجوب شرعيّ، إلا أن تطبيقه ليس مطلقاً، بل يخضع لشروط وضوابط دقيقة تضمن تحقيق المصلحة ودرء المفسدة، ومن أهمها:

● إذن الحاكم الشرعي: حيث أن قرار الحرب والقتال ليس قراراً فردياً يتخذه آحاد الناس، بل هو من صلاحيات الإمام المعصوم أو نائبه في زمن الغيبة (الولي الفقيه). فالحاكم الشرعي هو من يقدر الظروف والمصالح والمفاسد، ويأذن بالتحرك العسكري بعد استنفاد كافة الوسائل السلمية. وهذا الشرط يمنع الفوضى ويضمن أن يكون التدخل منضبطاً ومدروساً⁶⁹.

● القدرة والاستطاعة: لا يكون القتال واجباً إلا على القادرين عليه. فلا بد للدول أو الفصائل الإسلامية أن تمتلك القوة والقدرة الكافية للتدخل والنجاح في مهمتها دون أن يعود ذلك بالضرر الأكبر عليها أو على المستضعفين أنفسهم. فإن كان التدخل سيؤدي إلى مفسدة أعظم، فإن الواجب يسقط عملاً بقواعد الشريعة العامة الحاكمة كقاعدة "لا ضرر ولا ضرار" وقاعدة "تزاحم الأهم والأهم"⁷⁰.

● وجود الظلم والاستضعاف الفعلي: يجب التحقق من أن هناك حالة ظلم واضطهاد حقيقية، وأن المستضعفين قد وصلوا إلى مرحلة العجز التام عن الدفاع عن أنفسهم، وباتوا يستغيثون لإنقاذهم، كما وصفت الآية حالهم: "يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا...".

تتلاقى فكرة نصرة المستضعفين مع عدد من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، فهي:

- تطبيق لمبدأ النهي عن المنكر: فالظلم هو أعظم المنكرات، والعمل على إزالته هو من أوجب الواجبات.
- تحقيق للعدالة: فجوهر الرسائل السماوية هو إقامة القسط والعدل بين الناس، وإنقاذ المظلومين هو من صميم إقامة العدل.
- حفظ النفس والعرض والدين: فالقتال هنا يهدف إلى حماية أرواح المستضعفين وأعراضهم ودينهم من الفتنة والاضطهاد.

⁶⁷ المنتظري، حسين علي: دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية، ج2 ص388. & الزحيلي، وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته، ج8 ص5852.

⁶⁸ كلمة الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله في ختام المسيرة العاشورائية الكبرى 17-7-2024.

⁶⁹ الخميني، روح الله: تحرير الوسيلة، ج1 ص483 (في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كتاب الدفاع). & الماوردي، علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص41.

⁷⁰ الصدر، محمد باقر: اقتصادنا، (في المقدمة، عند الحديث عن دور الدولة في رفع الظلم). & الشاطبي، إبراهيم بن موسى: الموافقات في أصول الشريعة، ج2 ص25 (في نظرية المقاصد وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح).